ماهو كائن و ماسوف يكون!

نظرياً تواجه « اسرائيل » مأزقا تاريخيا : جسدهافي الشرق وعقلها في اوروبا. الشرق ليس الجغرافيا وحسب، إنه الثقافة والتاريخ، الشعوب التي عاشت متجاورة على مدى القرون، حاربت معا وتحارب، وحدّتها الديانات والمذاهب الكبرى، أو فرّقت بينها ،عرفت ذاتها في سياق الكفاح ضد الآخر البعيد الذي ليس هي، ان قماشة نسجها التاريخ. وكذلك الغرب.

كيف يمكن حل الاشكالية ؟

في احد العبارات التي اصبحت تقليدية من كثرة التعامل يصف هرتسل الدولة اليهودية المنشودة بانها « قلعة تحمي الحضارة الغربية امام البربرية الآسيوية » القلعة تنتمي الى نسيج آخر مضاد. القلعة ضدنسيج الشعوب المجاورة. مصيرها اذن هو الصراع لأن الجغرافيا والتاريخ لايرحمان، وفي هذه الحالة يبدو الصراع ابديا طالما ظلت« الحضارة الغربية » ظالمة و« البربرية الآسيوية »مظلومة.

المأزق من صنع الصهيونية لأنها ارادت القلعة، يهودية،اي انعزالية وغربية، اي معادية لمحيطها.

احد الحلول: « ان تتنازل اسرائيل عن مشروعها السياسي الحضاري الغربي وان تنتمي الى الشرق،أن تصبح جزءاً عضوياً من ثقافته وهمومه، أن تفك ارتباطها بيهود العالم. بعبارة موجزةان تعترف بحقوق الفلسطينيين، ان تكف عن العدوان. في هذه الحالة سيقبل بها الشرق. » على اية حال، هذا هو الحل المستحيل، لا اسرائيل بلا صهيونية. اذا كفت عن كونها صهيونية تموت. اذا فتحت القلعة ابوابها تنهار.

المهم، قادة « اسرائيل » يدركون جيدا حدود المأزق، ويفكرون بطريقة حل: الشرق كبير، واسرائيل صغيرة، الشرق قوى، واسرائيل ضعيفة.

الحل: الشرق صغير، واسرائيل كبيرة. الشرق ضعيف، واسرائيل قوية.

ربما يحتج البعض امام هذا التبسيط وهذه اللاعقلانية. على هذا البعض ان يتأمل مليا مغزى اسرائيل التي بدأت مستوطنة صغيرة ذات يوم في فلسطين مع نهاية القرن التاسع عشر واين اصبحت حدود المستوطنة الآن.

ربما يكرر البعض العبارات التقليدية عن « الامبريالية » ودورها في انشاء اسرائيل ... الخ ولكن اين التناقض ؟

لم يدع احد عقلانية الحضارة الغربية الرأسمالية المعاصرة. وليس خطأ اميركا انها تساعد اسرائيل على سحقنا. هذه أخلاق وليست سياسة.

عمليا تواجه « اسرائيل » مأزقا من طراز مختلف: انها تريد الارض بلا سكان. لم يزل عدد كبير من السكان في الارض.

الحل :طردهم.

ان استمرارهم يعني تحول « اسرائيل » الى دولة ثنائية القومية، وبعد فترة من الزمن الى تحول اليهود الى اقلية، وفي النهاية الى ذوبانهم. اذا استمر الوضع الديمغرافي كما هو الآن (بدون ذكر الفلسطينيين في الضفة الغربية و قطاع غزة » بعد ١٨ عاما، اي في نهاية القرن، سيكون من بين كل ٤ مواطنين في اسرائيل ليس يهوديا (اي فلسطينيا »، وذلك حسب كتاب الاحصاء السنوي الاسرائيلي الصادر في نهاية العام الماضي (١٩٨٢).

ربما، هنا يكمن « مكر التاريخ » حسب عبارة هيغل الرائجة. ولكن هل سيمكر التاريخ للجيتو اليهودي الذي انتقل من وارسو او منيسك الى يافا وحيفا، او للعرب الذين اجتمعواذات يوم في نهايات العقد الثاني من القرن العشرين ليعلنوا قيام الدولة العربية من ساحة المرجة بدمشق؟

حول كيفية الاجابة على هذا السؤال يدور الصراع.

لكن تجدر الملاحظة ان هذا الامر يشغل العقل « الاسرائيلي » اكثر مما يشغل العقل العربي. يوجد لدينا ميل مذهل الى الاطناب في استخدام اللغة والشعارات، الى الهروب من برودة العقل الى اشتعال الغرائز. نغرق في التفاصيل وننسى الكل. يسحرنا الحاضر على قاعدة « مع او ضد »، ونتطلع الى المستقبل بصوفية محزنة لأن الزمن يعمل لصالحنا !!ونكره «اسرائيل » ونضعها بين مزدوجين ونسميهما الكيان الصهيوني.

ولكن كيف تكرهنا «اسرائيل » و« الامبريالية » ...الخ

استغلال مياه الليطاني مثلا، بدأ كفكرة منذ مطلع القرن، ثم ذات يوم من عام ١٩٨٢ وصلت « اسرائيل » الى مياه الليطاني.

انشاء شريط حدودي بقيادة ضابط مسيحي منشق بدأ كفكرة في مطلع الخمسينات (ولحسن الحظ نشرت مذكرات شاريت بالعربية)، وذات يوم من عام ١٩٧٨ وجدت « اسرائيل » في شخص سعد حداد صورة ضابطها المسيحي المنشق.

انتظار دايان امام جهاز الهاتف بعيد حرب حزيران بانتظار مكالمة هاتفية من القادة العرب كان يبدو وقتها مثيراًللسخرية.

الآن نحن في عام ١٩٨٣، ولكن لا احد ينتظر امام جهاز الهاتف في تل ابيب، رغم ان العديد من القادة العرب يتحرقون شوقا وخوفا امام اجهزة الهاتف في عواصمهم. كانت القاهرة « قلب العروبة »، الآن علم اسرائيل يرفرف في « القلب ».

كانت بيروت عاصمة للشعراء وللمجانين وللثوريين الذين يحلمون بتغير العالم. الآن، بيروت عاصمة لحزب الكتائب.

القائمة طويلة، واستعراضها يبدو مهما.

ليس الاستعراض وسيلة لجلد الذات، انه وسيلة لاستنباط القانون الذي يتحكم بتكرار الظاهرة.

القانون، العقل « الاسرائيلي الصهيوني » عقل علمي واقعي يعرف ماذا اريد اليوم وماذا اريد غدا، وكيف ؟

في الماركسية، يُعرّف الوعي بأنه علاقة اغتصاب وسيطرة. انني اعي الشيء كي اغتصبه، الاغتصاب مدخل السيطرة. لااستطيع، مثلا، ان اصنع طاولة مالم اسيطر معرفيا على فكرة الطاولة، قياساتها، استخدامها، مدى الفائدة منها، تكاليفها، المواد التي تصنع منها، وقت العمل الضروري ... الخ

هذا النموذج ينطبق على اي شيء في الكون من الطاولة الى حصار بيروت.

نموذج من التفكير المستقبلي

بين ايدينا وثيقة نشرتها « النداء » البيروتية (٢٢ كانون الثاني ١٩٨٣)، ويرجع تاريخ نشرها في القدس الى شباط ١٩٨٢، وهي لعوديد عينون الموصوف بانه صحافي وموظف قديم في وزارة الشؤون الخارجية الاسرائيلية. وقد ارسلت المقالة٪ الوثيقة بواسطة الدكتور يسرائيل شاحاك الى مجلة « دراسات فلسطينية ». الوثيقة محاولة لوعي الواقع من اجل السيطرة عليه.

خلاصة الوثيقة: استراتيجية اسرائيل في الثمانينات، تقسيم المنطقة العربية والدول الاسلامية.

معناها: الوصول الى صيغة اسرائيل قوية وشرق اوسط ضعيف.

قبل استعراضها تجدر الاشارة الى نقطتين :

اولا، سواء كانت الوثيقة تعبيرا عن توجهات رسمية لدى القادة الاسرائيليين، او وجهة نظر فردية، فأن وقعها على الذهن والقلب يبدو مقلقا. اسرائيل البالغ عدد سكانها ٤٫٠٤ مليون نسمة تفكر بتقسيم منطقة يبلغ عدد سكانها ١٧٠ مليون نسمة !!

الا يدل هذا على خلل في « ميزان القوى » يستدعي تحكيم العقل. يستدعي الدرس والفهم والتحليل ! ويستدعي مجابهة التحدي بتحد مضاد.

ثانيا، ربما يقول البغض ان اسرائيل « تدس » علينا الافكار، تريد تسميم عقولنا بمعلومات تثير القلق. ولكن اليست هذه عملة ذات وجهين، تحتمل الخطأ مثلما تحتمل الصواب ؟؟، الم تمارس عديد من الاوساط سياسة التعتيم او التجاهل من قبل؟ ثم اتضح انها لا تخدم احدا في نهاية الامر؟ نحتكم الى العقل ونقرأ الواقع، هذا هو المقياس.

ماذا تقول الوثيقة اذن ؟

يستعرض الكاتب المخاطر التي تهدده امن اسرائيل في الثمانينات فيعتبر ان اولها يأتي من جهة الاتحاد السوفياتي « لقد اكتشف الغرب ان الاتحاد السوفياتي قد وضع نصب عينيه هدفا يقضي بالتغلب على المجتمع الغربي عن طريق تثبيت رقابته على الموارد الهائلة للخليج الفارسي وعلى احتياط العالم للمواد التعدينية الاساسية في جنوب افريقيا (...) ان نتصدى لهم [اي للسوفيات] هي الاولوية الملحة لأمننا وبالطبع لأمن العالم الحر بأسره، ان هذا الامر بالنسبة لنا هو اول الاخطار الخارجية ».

نلاحظ ان خيار اسرائيل ان تكون « قلعة العالم الحر » وان تدافع عن مصالحه، والاهم ان الخطر الخارجي يأتيها من السوفيات اولا، على اية حال هذه المسألة تحتاج الى فهم عميق وليس الى جهل، والسؤال ما هي فعلا حدود اتفاقية التعاون الاستراتيجي بين الولايات المتحدة واسرائيل ؟

كيف تبدو صورة العالم العربي في الثمانينات ؟

يقول الكاتب: « ليس العالم العربي الاسلامي، ونحن نعي ذلك، العنصر المهيمن على مشاكلنا الاستراتيجية لأعوام الثمانينات. على الرغم انه يشكل التهديد المباشر الاول ضد اسرائيل لسبب من قوته العسكرية المتناميه (...) ان هذا العالم الاسلامي بأقلياته العرقية، بانقساماته، بالأزمات الداخلية فيه والتي تنهشه (...) ان هذا العالم غير قادر على حل مشاكله الاساسية وبالتالي فليس بمستطاعه ان يشكل تهديدا حقيقيا لأسرائيل على المدى البعيد (...) ان لم يمر بتحولات ثورية، لن يستطيع العالم العربي الاستمرار في بناه الرهنة، لأن العالم العربي ليس سوى قعر من ورق بنته القوى الاجنبية (فرنسا وبريطانيا في سنوات ١٩٢٠) متجاهلة تطلعات سكان البلد الاصليين. لقد قسمت هذه المنطقة بشكل تعسفي الى ١٩ دولة، وجميعها مكونة من مجموعات عرقية مختلفة ومن اقليات متناحرة فيما بينها، الى درجة ان كل دولة من هذه الدول العربية الاسلامية تجد اليوم نفسها مهددة من الداخل بسبب النزاعات العرقية والاجتماعية كما ان الحرب الاهلية قد « بدأت فعلا في بعض منها ».

كيف تستثمر اسرائيل هذا الوضع؟

« انه وضع مثقل بالتهديدات والاخطار. لكن للمرة الاولى منذ عام ١٩٦٧ وضع يحفل بالاحتمالات والفرص التي ضاعت في تلك الآونة، يمكن ان تبرز من جديد اكثر منالا في الثمانينات، ضمن شروط وبوفرة لايمكن لنا حتيان نتخيلها الآن »

ما هي الاحتمالات التي تبدو اكثر منالا في الثمانينات، بتقديري، ربما اهمها طرد الفلسطينيين من الضفة وغزة: تهجيرهم، ذبحهم، زرع مدنهم وقراهم بالمستوطنات، ارهابهم، دفعهم الى الهجرة .. الخ ليس هذا هو المهم. المهم كيف ومتى؟

وبهذا الصدد يقول الكاتب « كان بمقدورنا (خلال حرب حزيران ١٩٦٧) ان نتخلص من الصراع القاسي والخطر الذي عرفناه منذ تلك الفترة، لو اننا اعطينا شرق الاردن للفلسطينيين الذين يقطنون في الضفة (...) مع ذلك هناك امكانيات هائلة تتاح لنا اليوم، وتمكننا من ان نقلب الاوضاع كليا، وهذا ما علينا ان نقوم به في العقد المقبل خشية ان نزول كدولة (...) لن يكون هناك تعايش سلمي في هذا البلد الا حين يفهم العرب انهم لن يعرفوا وجودا ولا أمنا الا اذا تحققت السيادة اليهودية من الاردن حتى